قراءة في كتاب

السؤال اللاهوتي

مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد، تأليف الدكتور عبد الجبار الرفاعي،

بغداد: مركز دراسات فلسفة الدين، وبيروت: دار الهادي للطباعة والنشر، 2005، ص.316

مراجعة: هاجر القحطاني*

يهدي عبد الجبار الرفاعي كتابه الأخير: مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد، إلى زوجته: انتزال الجبوري، اعترافا منه بالدعم العاطفي والمعنوي والفني المتدفق الذي أحاطته به زوجته الكريمة، موفرة –بود كبير– مناخا مثاليا للكاتب في التفرغ لانشغالاته الفكرية واهتماماته الثقافية؛ وإلى صديقه: ماجد الغرباوي، اعترافا أيضا بفضله في انبثاق الأسئلة، التي أدت إلى قدح شرارة الأفكار الجديدة في لقاءاتهما الودية الطويلة الكثيرة، التي كانت تأخذ شكل وهوية الحوارات الثقافية العفوية الحرة، في الحوزة العلمية في مدينة قم الإيرانية؛ حيث كان يقيم الاثنان منخرطين في مشهد ثقافي عراقي فريد من نوعه، يزاوج بين الهم الثقافي المنتمي إلى الثقافة العربية خارج الحدود، والهم الثقافي الإيراني وليد السؤال السياسي والمعرفي المهجوس بالتواصل مع الآخر، في بيئة ثقافية وسياسية تميل إلى الاختلاف وربما الانقطاع.

يؤكد الرفاعي أن تاريخ البشرية هو تاريخ الأسئلة الكبرى، وبالتالي فإنه لا ينشغل بالإجابات النهائية –أو أنها ليست همه الأول– في سعيه لتقديم قراءة جديدة للدين، قراءة متخففة من الإرث التاريخي الكبير، الذي يثقل ظهر الدين والمتدينين في هذا العصر، وقراءة ملتحقة بالركب المعرفي والعلمي الحديث، تتبنى أساليبه في البحث والتقصي والاستفهام والاستدلال والاستنتاج، في حرص واضح على عدم التفريط بالدين والحفاظ على الإيمان، الأمر الذي يميز عبد الجبار الرفاعي والتيار الذي ينتمي إليه، أو بالأحرى يمثله، باعتباره رائدا

* قاصة وناقدة عراقية.

فعليا له، تبنى إبرازه ولفت النظر إليه في مجلته المتميزة (قضايا إسلامية معاصرة) وسلاسل الكتب المتعددة الرديفة لها.

إن كتاب الرفاعي يترجم هموم وتطلعات ومواقف وأفكار هذا التيار الديني، الذي بدأ يتبلور بشكل تدريجي في الحوزة العلمية في قم، وسط طلاب الدراسات الإسلامية من العراقيين، ولديه تطلعات تنويرية وتحديثية، انبثقت مع بداية التسعينات من القرن المنصرم، واتضحت ملامحها في منتصف ذلك العقد، متأثرا بمحاولات تحديث التفكر الديني في إيران على يد مجموعة من المفكرين المعاصرين. ويمكن اعتبار هذا التيار وريثا معاصرا لتيار ظهر في النجف قبل أربعين سنة، وتجلى بجهود تنويرية لمحمد رضا المظفر، ومحمد باقر الصدر في العراق، ولاحقا السيد محمد حسن الأمين، والسيد هاني فحص، والسيد محمد حسين فضل الله، والمرحوم الشيخ محمد مهدي شمس الدين في لبنان. غير أنه بالتأكيد يشكل نقلة نوعية كبيرة، لأن التيار السابق كان مهموما بتجديد النمط التقليدي للتعليم الديني في الحوزة العلمية بالدرجة الأولى. أما التباين الأساسي بين الاثنين فيكمن في الموقف من تسييس الدين؛ إذ بينما كان بعض الأوائل يتبنى الإسلام السياسي، فإن التيار الجديد يقول إنه حرر نفسه منه، وهو يدعو إلى تطهير التدين من منطق الوصاية، ومن وثوقية الأيديولوجيا وإكراهاتها.

يطرح هذا التيار أسئلته حول القضية اللاهوتية، التي يراها تمثل الجذر لكل البنيات الفوقية في الفكر الديني، وبذلك فهو يهتم ببناء لاهوت يدعو إلى تحرير صورة الإله مما طمسها من تفاسير وشروح تراكمت عليها عبر العصور، وتشكلت في سياق صراعات ومناخات ثقافية سادت القصور السلطانية، التي عملت على صياغة صورة زائفة عن الإله، ولذلك يبحث هذا التيار عن صورة لإله رحيم يشيع السلام، إله رفيق بالعالم الذي خلقه، يمنح الإنسان حريته في إعمار الأرض، بما يشبه استئنافا للنزعات التنويرية في التراث التي تمنح العقل مرجعية واسعة، والإنسان حرية كبيرة، داعية إلى علاقة حرة بين الإنسان والإله. وتبدو أهمية هذه القراءة في أنها تحرر الدين من الظلامية، وتقدم نمطا متسامحا للتدين، ينفتح على كل الناس بشفافية دون حساسية عرقية أو طائفية.

لكن هذا لا ينفي أهمية مشروعات رائدة في العصر الحديث عملت على الانتقال بالتفكير الديني إلى مجالات أرحب وأبعد مدى، وإن كان بعضها مشغولا بفكرة الدولة الدينية، إلا أنها بكل حال أسست للانتقال إلى فضاء فسيح، مما سمح للقادمين بتخطيها والعوم في فضاءات أوسع، مكنتهم من مراجعتها، ومن

ثم تقديم قراءة جديدة لها، في محاولات جادة لتجاوز المشاغل السابقة والانتقال إلى هموم معرفية مختلفة؛ وهي هموم تتكئ على النقد والمراجعة، وتعمل على نحت الأسئلة وتوليدها باستمرار، كما يصرح عبد الجبار الرفاعي في مقدمة كتابه قائلا: في هذه الصفحات يرتسم شيء من ملامح نمط التفكير الذي أسعى لإعلانه ومناقشته، قبل أن أطمح للتبشير به، أو حمل الآخرين على الاقتناع به. إنه تفكير يتسلح بالنقد والمراجعة، باعتبار الفكر الحديث، الذي حقق المكاسب الهائلة في العالم، كله فكر نقدي. كذلك يتسلح هذا التفكير بإثارة السؤال، والبحث عن الاستفهامات الحائرة القلقة المثيرة، لأن تطور الفكر البشري يقترن دائما بالأسئلة الحرجة والاستفهامات الحائرة. وإن السؤال الجديد يوقد عملية التفكير، ويقحم الذهن في مغامرة البحث في الحقول المهملة أو المجهولة أو الممنوع التفكير فيها.

ولا مطامح لما ورد في هذا الكتاب سوى الدعوة لإعمال العقل، والتنبيه إلى ضرورة التدبر والنظر فيما ورثناه من معارف، وإشاعة تقاليد جديدة تهبنا الجرأة وروح الاقتحام، لمراجعة ما لدينا من مفاهيم، وغربلة التراث واختباره، وما تركه لنا السلف، وبالتالي التحرر من سطوة مقولات أولئك الذين كانوا يكبحون العقل، ويحرّمون على المسلمين الخوض في أي استفهامات لاهوتية، بذريعة (إلجام العوام عن علم الكلام)، خلافا لمنطق الوحي الذي يحث كافة الناس، دون تمييز بين طبقاتهم ومراتبهم، على: التفكر، والتأمل، والنظر، والتدبر. وكل ما تحتوي عليه هذه الصفحات هو مقدمات تمهيدية تسعى لاجتراح أسئلة، والخلاص من أي سلطة معرفية تعمل على كبح العقل ومحاصرته، بغية الكف عن إثارة الاستفهامات وتعطيل التفكير تحت أي ذريعة؛ فقد خلق الله الناس أحرارا، ومنحهم قابلية التفكير، ولم يحظر عليهم أي سؤال، مهما كان مشاغبا أو مستفزا، كما يحكي لنا كتابه الكريم.

وبالرغم من تنوع المساهمات المنشورة في الكتاب، غير أنها بمجموعها تلتقي في قضية تجديد مناهج الاجتهاد في المعارف الإسلامية، وتنمية مجالاته ليمتد إلى علم الكلام أو ما يعبر عنه الكاتب باللاهوت. ففي الفصل الأول يتناول ما يسميه بعلم الكلام الجديد، ويتحدث عن مبررات تحديث التفكير الكلامي، وبناء علم كلام بديل لعلم الكلام الكلاسيكي؛ ويلخصها في هيمنة المنطق الأرسطي، والنزعة التجريدية أو الفصام بين النظر والعمل، وتفريغ علم الكلام من مضمونه الاجتماعي، وتراجع دور العقل وشيوع التقليد في علم الكلام. ويضيف الرفاعي إلى تلك المبررات مبررات أخرى تتمثل في اعتماد الكلام القديم على الطبيعيات الكلاسيكية، والاستناد إلى معطياتها كحقائق نهائية، بينما نسخت العلوم الطبيعية الحديثة معظم الأفكار والفرضيات التي

قامت عليها الطبيعيات بالأمس، وبرهنت الاكتشافات الحديثة لقوانين الطبيعة على أن الكثير من فرضيات تلك الطبيعيات وأفكارها أوهام محضة.

كما أن الكلام التقليدي اقتصرت أبحاثه على مجموعة مسائل، ولبث الخلف يكرّر هذه المسائل ذاتها، ويفكر في داخلها، حتى تكونت لها حدود صارمة، لم يجرؤ أحد على تخطّيها، وصار مدلول العقيدة هو تلك المسائل خاصة، واتخذ المتكلمون نسقا محددا في ترتيبها، وظل هذا النسق هو هو في المدونات الكلامية. وقد أدّى ذلك إلى حجب مباحث مهمة في علم الكلام، لعلّ من أبرزها مبحث الإنسان؛ فلم يدرج في مؤلفات المتكلمين مبحث خاص بالإنسان، يتناول تأصيل موقف نظري يحدّد موقع الإنسان في سلم المخلوقات؛ أي منزلة الإنسان وقيمته بالنسبة إلى غيره من المخلوقات، كالملائكة والجنّ وغير ذلك، والهدف من وجوده، وطبيعة وظيفته، وأنماط حياته، وثقافته، وعيشه، وعلاقتها بما يتشكل لديه من رؤية كونية، وما يرتبط بذلك من مسائل؛ بينما نجد قضية الإنسان تتصدّر القضايا التي يعالجها القرآن. على أن أهمية هذه القضية تتنامى مع تطوّر الحياة الاجتماعية، وشيوع ألوان القهر والاستبداد، وامتهان الإنسان، وإهدار كرامته، وتدجينه على المفاهيم والقيم الرديئة، فما لم نتوفر على صياغة رؤية كونية تفصح لنا عن مكانة الإنسان، وتحدّد نوع علاقته بالدين، وتؤكد أن الدين جاء لتكريم الإنسان وهدايته وخدمته،تغدو دعواتنا لتحرير الإنسان مجرّد شعارات لا مضمون لها.

أما الفصل الثاني فيبحث في ضرورة الاجتهاد في علم الكلام، ويشدد على أن المعرفة الكلامية معرفة تاريخية تعد مرآة للعصر الذي ولدت فيه، لأن علم الكلام يعبر عن فهم المتكلمين للعقيدة، وفهمهم كأي معرفة بشرية يصطبغ بطبيعة الزمان والمكان، والنمط الحضاري للحياة،ومستوى تطور العلوم والمعارف الأخرى، وأن انتماء علم الكلام للإسلام إنما هو كانتماء المعارف الأخرى؛ أي بمعنى أنه معرفة أنتجها المسلمون، مثلما أنتجوا الفلسفة، والتصوف، والعرفان، والفنون، والآداب،... وغيرها. ولا يبرر إنتاج المسلمين لتلك المعارف تعاليها على النقد والمراجعة؛ لأن انتسابها إلى الإسلام ليس سوى كونها ولدت في فضاء التجربة الإسلامية، وفي سياق مسار حضارة المسلمين. ولعل علم الكلام من أوضح ما أنجزه عقل المسلمين، في تشبعه بالمؤثرات السياسية والثقافية المختلفة للمحيط الذي ولد فيه، وهذا ما يحكيه الاختلاف والتباين الفاحش في المقولات الكلامية. لكن أهمية علم الكلام تكمن في إطلاق حرية الاجتهاد العقائدي، واختلاف المقولات ووفرتها تجسد

وجهات نظر متنوعة أفضى لها التفكير الكلامي، مضافا إلى أنها علامة فارقة على منح كل مسلم الحق في اختيار عقيدته، بل وحرمة تقليد الآخرين.

إن حظر التفكير الكلامي، والاقتصار على ظاهر النصوص، ومنع أي محاولة لعقلنة الفهم العقدي، يفضي إلى تعطيل العقل، وشيوع نزعة نصوصية إخبارية تبناها المحدثون، وروّج لها ودعمها بعض الخلفاء الأمويين في فترة مبكرة من التاريخ الإسلامي، وبالتالي سيادة التقليد في أصول الدين، بالرغم من أن هذا النوع من التقليد لم يقل بجوازه أحد سوى هؤلاء؛ فقد أجمع المتكلمون على منع التقليد في الأصول، واستدلوا بالعقل تارة وبالكتاب الكريم تارة أخرى.

وتعالج فصول الكتاب الخمسة عشر قضية تحديث التفكير الديني، وتتناول موضوعات متنوعة تلتقي بمجموعها في صياغة استفهامات لاهوتية لم تكن معروفة من قبل. ولعل الميزة الأهم في هذا الكتاب هي محاولته التحرر من النزعة الجزمية والأحكام المطلقة الشمولية، التي تطبع أدبيات الإسلاميين وكتاباتهم، مثلما تفصح عنها عناوين كتاباتهم حين يسمونها بـ(كفاية ... أو نهاية...أو منتهى ....) بينما يسمي عبد الجبار الرفاعي كتابه بأنه (مقدمة)، ويصفه بأنه يطرح سؤالا لاهوتيا (في السؤال اللاهوتي...) ولا يعد بإجابات جاهزة ونهائية. وإن كان المؤلف لم يتحرر بشكل تام من التفكير اللاهوتي، ويفتقر إلى روح المجازفة والمغامرة المعرفية اللازمة لأي محاولة للتحديث، ربما بسبب انخراطه حتى اليوم في الحوزة العلمية، ومواظبته الحرفية على أداء الطقوس والشعائر والمراسم الدينية.